# نظريات الذكاء 1 :التناولات المعرفية النمائية : النظرية البنيوية لبياجي Piaget و النمو العقلي عند فالون Wallon

## مقدمة

يعتبر بياجي (1896-1980) و فالون (1879-1962 ) من اهم المختصين النفسانيين الذين اهتموا بنمو و تطور القدرات المعرفية عند الطفل حيث توصلا الى بناء نظرية لذلك. لقد انطلق بياجي بتتبع مراحل النمو العقلي لأطفاله الثلاث (Laurent و Jacqueline وLucienne ) كما اعتمد فالون على الملاحظة و العديد من المقاربات النظرية نذكر منها خاصة علم النفس المرضي الطفل و المراهق و علم النفس الحيوان و كذلك دراسة الإنسان الأولي او البدائي. ، بالرغم من اختلافاتهم النظرية فهذا لم يمنعهما من التشاور و عرض وجهات نظرهم و تقديم نقاط الاختلاف بينهما. للتذكير نشر كل منهما العديد من المؤلفات على سبيل المثال بياجي La naissance de l'intelligence chez l'enfant (1936)، La formation du symbole chez l'enfant (1937) و La construction du réel chez l'enfant (1937). اما فالون L'enfant turbulent, spécialement Stades et troubles du développement psychomoteur et mental chez l'enfant

(1934) Les origines du caractère chez l'enfant, les préludes du sentiment de personnalité

(1942) De l'acte à la pensée, essai de psychologie comparée

### 1-النظرية البنيوبة لبياجي (Piaget)

تعتمد النظرية البنيوية لبياجي على الفرضية التي تقول ان الإنسان يتوفر على قدرات معرفية (البنية) تسمح له بالتعرف و فهم الواقع. و منه فالإنسان يكتسب المعارف انطلاقا من أفعاله. فمن جهة يستعمل الفرد الاستيعاب أي استدخال المعلومات المتواجدة في المحيط الى القدرات المعرفية و اذا واجه وضعية جديدة فانه يكيف قدراته المعرفية لهذه الوضعية بهدف استدخالها من جديد. نلاحظ من كل هذا وجود ميكانيزمين اساسين في نظرية بياجي : الأستيعاب و الملائمة. و منه يقول بياجي ان الذكاء سيرورة تكيفية أي سيرورة تكيفية تمثل دائما توازن بين الأستيعاب و الملائمة.

تعريف الذكاء عند بياجي

عرف بياجي الذكاء على انها شكل من شكل التكيف. هنا يربط بياجي بين التكيف البيولوجي للفرد و بين الذكاء و أكد على العلاقة بين البيولوجيا و بين الذكاء منه يمكننا ان نشير الى ان الذكاء يمثل توازن بين

ميكانيزمي الاستيعاب و الملائمة، أي التكيف العقلي الأكثر تقدما. بالنسبة بياجي الذكاء مرتبط بتنظيم المعرفي الذي يكتسبه الفرد خلال مراحل النمو. و منه فالذكاء حسب بياجي يمثل شكل سامي من التنظيم المعرفي.

لقد اقترح بياجي نموذجا شاملا لنمو و تطور القدرات المعرفية عند الكائن الإنساني من خلال تطور العمليات المنطقية و طبيعتها. و منه فكل بنية معرفية تهدف الى توازن معين. و على هذا الاساس وضع مجموعة من المراحل متتابعة ، حيث تتميز كل مرحلة ببنية معينة و بمراحل تحيتة. كما ان في نهاية كل مرحلة تحضر الى المرحلة التي تليها. نوضحها كمايلي:

- المرحلة الحسية الحركية و تمتد من 0 الى سنتين

ان ما يتوفر عليه الرضيع في هذه المرحلة يتمثل أساسا في المنفعلات العكسية و التي تسمح ببناء حركات و افعال منظمة و معقدة. يعتمد الرضيع هذه المرحلة النمو الحسي الحركي على ادراك الأشياء و النشاطات الحركية. فالذكاء هنا هو ذكاء حركي ، فعلي في غياب التمثيل الفكري (التفكير) ، اجرائي و محدد مكانيا و زمانيا. كما ان هدف هذا الذكاء هو النجاح أي الوصول الى الهدف. كما انها شخصية.

- المرحلة ما قبل الإجرائية من سنتين الى 7-8 سنوات

في هذه المرحلة نلاحظ بروز ما يسمي بالوظيفة الرمزية، حيث يستطيع الطفل ان يمثل او يتصور عقليا فعل او شيء او حادث معين...الخ في غيابه. للتذكير ان تطور هذه الوظيفة الرمزية تمثل نتاج لتطور اللغة عند الطفل. كما تظهر في هذه المرحلة سيطرة التفكير المتمركز حول الذات حيث أنه لا يأخذ بعين الاعتبار كل الأبعاد في تفكيره و منه التفكير هنا ما قبل منطقي و حدسي.

- مرحلة العلميات الملموسة من 7-8 سنوات الى 11-12 سنة

ما يميز هذه المرحلة سيطرة التفكير الملموس ، أي ان تفكيره منصب على الأشياء فقط. كما يكتسب الطفل القدرة على تحويل الواقع بالاعتماد على التصور و التمثيل الذهني عن طريق ما أطلق عليها بياجي بالتبادلية. يعتمد الذكاء في هذه المرحلة على مجموعة من العمليات المنطقية ، على خلاف المرحلة السابقة التي تعتمد على التمثيل و التصور)

في نهاية هذه المرحلة يبدأ الطفل في التخلص تدريجيا من التفكير المتمركز حول الذات.

مرحلة العمليات المجردة انطلاقا من سن 11-12 سنة

هنا يستطيع الطفل التفكير اصورة مجردة بدون الاعتماد على الأشياء الملموسة. كما يمكنه اقتراح فرضيات و يمكنه ان يفكر اخذا بعين الاعتبار كل ابعاد الشيء او الوضعية الذي تواجهه.

لقد تعرضت نظرية بياجي للانتقاد من طرف العديد من الباحثين نذكر منهم على سبيل المثال تشومسكي و كذلك فالون. حيث أعاب هذا الأخير على بياجي عدم اعتبار دور و تأثير المحيط الاجتماعي على الطفل.

**2-النمو العقلي عند فالون ( Wallon)**

يعتبر فالون (1962-1879 ) الطبيب و المختص النفسي الفرنسي الذي اهتم بالطفل و بنمو الشخصية بصورة كلية معتمدا على مجموعة من الابعاد : العاطفة و الحركة و المعرفة و الشخصية. كما إستعان بمقاربات متعددة مثل علم النفس المرضي الطفل و المراهق و علم النفس الحيوان و كذلك دراسة الإنسان الأولي او البدائي. كما اعتمد فالون على الماركسية كأداة تصورية تعتمد على فهم الفرد انطلاقا من ظروفه الطبيعية و كذلك الجدلية (التركيز على العلاقة بين الظواهر). و هذا ما دفعه الى القول أنه لا يجب اختصار الطفل في العامل البيولوجي فقط و لكنه اعتباره أيضا كائنا اجتماعيا. بالرغم من عدم نضجه فالطفل من خلال التفاعل مع البيئة الاجتماعية يهدف الى بناء ذاته و شخصيته.

يعتبر فالون ان النمو العقلي لا يظهر بصورة مستمرة و تراكمية : يتميز النمو العقلي بالانتقال من نسق الى أخر او من نظام الى اخر. و بالتالي فكل نسق يختلف عن النسق الأخر و هذا ما يمنع النقل بينهما. اعتمد فالون على ثلاثة مصطلحات أساسية تلعب دورا كبيرا في التحول من البيولوجي الى الاجتماعي.

الحركة

بالنسبة لفالون تسمح الحركة للطفل بالتأثير على المحيط حيث تعتبر وسيلة تعبيرية خاصة خلال الأشهر الأولى من الحياة. و منه فالحركة تلعب دورا اتصاليا و تعبيريا للانفعالات التي يظهر على الطفل.

الانفعال (العاطفة)

يعتبر الانفعال عامل رئيسي في الحياة النفسية عند الطفل نظرا لكونها مرتبطة بالجانب الفيزيولوجي و كذلك بالجانب الاجتماعي. تلعب الانفعالات دورا مهما في التواصل مع المحيط خاصة في غياب اللغة، الذي يعطي معنى لهذه الانفعالات و يؤولها.

التقليد او المحاكاة

بالنسبة لفالون يمثل التقليد او المحاكاة نشاط يعبر عن وضعيات جسم الطفل. انها نوع مت الملائمة لحركة الشخص الأخر. حيث يميز بين نوعين من المحاكاة: المحاكاة الأنية و التي يقوم الطفل من خلالها بتقليد

مباشر لفعل معين و المحاكاة المتأخرة و التي ينجزها الطفل بعد مدة زمنية و التي تتضمن تمثيل و تصور.

تطرق فالون الى ثلاثة قواعد او قوانين رئيسية تميز النمو العقلي و هي:

- الإدماج الوظيفي و يشير الى الإدماج المستمر لكل عناصر الشخصية في النمو و الذي يعبر عن وحدة النمو عند فالون و تأثير كل الأبعاد فيه.

-السيطرة او التغلب الوظيفي و يشير الى سيطرة او غلبة كل بعد (الحركة او الانفعال او التقليد) على الأبعاد الأخرى خلال كل مرحلة من مراحل النمو.

- التناوب و تعبر توجيه سلوك الطفل خلال مراحل النمو: هل السلوك موجه نحو الآخرين او على العكس من ذلك موجه نحو الذات.

مراحل النمو عند فالون

بالنسبة الى فالون ان كل مرحلة عمرية تشكل نظاما عقليان يتميز بظهور اهتمامات او احتياجات معينة. كما يتغلب بعدا معينا على باقي الابعاد في كل مرحلة عمرية و تكون سلوكات الطفل أما موجهة نحو المحيط او موجهة نحو ذاته. و يضيف فالون ان كل مرحلة عمرية مستقلة بذاتها لأنه كما قلنا سابقا سيرورة النمو عنده لا تشكل نموا مستمرا كما ان المراحل ليست محددة بصورة دقيقة من الناحية الزمنية و بالتالي تتداخل فيما بينها.

- المرحلة الاندفاعية الحركية: من 0 الى 6 اشهر

و هي المرحلة التي تأتي مباشرة بعد الولادة حيث تسيطر العاطفة و تتميز بحركات الطفل العشوائية التي يلجا اليها ليعبر بها عن حالة التوتر التي يعيشها. و منه فهذا المرحلة موجهة نحو الآخرين.

- المرحلة الانفعالية 3 اشهر الى سنة

و هي مرحلة موجهة نحو الطفل حيث تتميز بالانفعالات و العاطفة التي تأخذ معنى تعبيري و اتصالي مع المحيط.

- المرحلة الحسي الحركية و الإسقاطية : سنة الى 3 سنوات

مرحلة موجهة نحو الآخرين و فيها يكتسب فيها الطفل اللغة و المشي حيث ان هذا الأخير مع التعامل بالأشياء يسمح بتطور الذكاء المرتبط بالوضعيات او الذكاء العملي. في حين اكتساب الطفل للغة يساعد على ظهور الذكاء التمثيلي او التصوري. و نفس الشيء نقوله عن المحاكاة المتأخرة التي تسمح بالانتقال الى الذكاء التمثيلي.

- المرحلة الشخصانية : 3 الى 6 سنوات

و هي مرحلة الأزمة الأولى و هي موجهة نحو الطفل حيث يسيطر الانفعال و العاطفة على الذكاء و تتضمن 3 فترات و هي:

فترة المعارضة و تظهر في حوالي سن الثالثة و هي استعمال الطفل "اللا" او الرفض حيث يفرض الطفل ذاته و يؤكد على تميّزه عن الآخرين

مرحلة النعمة او الخير التي تظهر في سن الرابعة. تظهر هنا رغبة الطفل في إرضاء وإغراء محيطه بدون ان ننسى الخجل الذي يميز الطفل.

مرحلة تقليد الراشد التي تظهر في سن الخامسة و التي تتميز بقدرة الطفل على الاندماج الاجتماعي و تفسح المجال الى الدخول الى المدرسة.

- مرحلة الفئات 6 الى 11 سنة

و هي مرحلة موجهة نحو الآخرين وتتميز بسيطرة الذكاء كما يتمتع الطفل بالانتباه و الذاكرة . تصادف هذه المرحلة التحاق الطفل بالمدرسة و الانفتاح نحو العالم الخارجي. يتسم نشاط الطفل بالعقلانية و يتطور تفكيره حيث يتسم بالانفصال عن الواقع و الأشياء و بناء فئات ذهنية و يتجه الى التجريد. ان التفكير بالفئات يسمح للطفل بتجميع الأشياء في فئات تشترك في نفس السمة.

مرحلة البلوغ و المراهقة انطلاقا من 11 سنة

و تسمى ايضا مرحلة الأزمة الثانية و هي مرحلة موجهة نحو الطفل نظرا لتأثير العوامل الخاصة بالبلوغ من جهة و العوامل النفسية و الشخصية من جهة اخرى.تتميز هذه المرحلة من الناحية الذكائية بسيطرة التفكير المجرد.

ترى Laval (2019) ان بياجي و فالون يختلفان في العديد من النقاط نذكر البعض منها :

ركز بياجيه نظرية نمو الذكاء في حين اهتم فالون بالشخصية و كل ابعادها.

فيما يخص العوامل المشاركة في النمو، يمنح كل من فالون وبياجيه دورًا مهمًا للعوامل البيولوجية .لكنهما يختلفان فيما يتعلق بـ الدور الاجتماعي :يرى بياجيه أن التكيف مع العالم المادي يسبق التكيف مع العالم الاجتماعي أما عند فالون، فالمحيط الاجتماعي أول بيئة يجب على الطفل التكيف معها وتلعب دورًا أساسيا خلال النمو .

أما بالنسبة لمراحل النمو يعتبر فالون النمو متقطع و تظهر فيه أزمات بينما يشدد بياجيه على استمرارية نمو الذكاء .وبالمثل، فإن مفهوم المرحلة أقل تجانسًا عند فالون؛ ففي حين يعتبر بياجيه كل مرحلة بنية متكاملًة و محددًة هرميًا، يرى فالون أن المرحلة مستقلة بذاتها وتتميز بغلبة سلوك معين يستخدمه الطفل بشكل متكرر.